دوفصل‌نامه علمی - تخصصی
مطالعات تاریخی امت اسلامی
س۸، ش۱٦، پاییز و زمستان ١٤٠٤
صفحات ۱۲۳ تا ۱۵۱

Quarterly Journal
Historical Studies of Islamic Community
Vol.8, No. 16, Autumn & Winter 2025
P 123 - 151

دور القادة المحليين والشخصيات الدينية فى تنظيم المقاومة ضد الاستعمار الفرنسى فى غرب أفريقيا (القرن التاسع عشر – بداية القرن العشرين)

موسى دومويا[1]

المستخلص

تهدف هذه الدراسة إلى تحليل دور انتشار الإسلام فى غرب أفريقيا فى تأسيس قاعدة دينية وثقافية للمقاومة ضد الاستعمار الفرنسى خلال القرن التاسع عشر وبدايات القرن العشرين، مع إبراز إسهامات الطرق الصوفية والقادة المحليين. وتنطلق من فرضية أنّ الإسلام لم يكن مجرد عقيدة، بل منظومة حضارية أسهمت فى بناء الوعى الجماعى وتعزيز الهوية وتنظيم أنماط المقاومة. اعتمدت الدراسة المنهج التاريخى التحليلى عبر تتبع مسار انتشار الإسلام قبل الاستعمار، وتحليل السياسات الفرنسية تجاه المؤسسات الدينية، ودراسة أشكال المقاومة الروحية والمسلحة، مستندةً إلى مصادر عربية وأفريقية وغربية ودراسات حديثة. تبيّن النتائج أنّ انتشار الإسلام عبر التجارة والدعوة والطرق الصوفية، أرسى بنية دينية واجتماعية متماسكة مكّنت المجتمعات من مواجهة المشروع الاستعمارى. وتحولت الزوايا إلى مراكز للتعليم الهوية الإسلامية، وإلى فضاءات للتعبئة الاجتماعية والسياسية. كما أسهم التكامل بين القيادات الدينية والزعامات المحلية فى إضفاء الشرعية على المقاومة وضمان استمراريتها. وتخلص الدراسة إلى أنّ المقاومة لم تكن فعلًا عسكريًا محدودًا، بل مشروعًا حضاريًا شاملاً مهّد لظهور الحركات الوطنية المؤدية إلى الاستقلال.

الكلمات المفتاحية: غرب أفريقيا، الاستعمار الفرنسى، الطرق الصوفية، المقاومة الإسلامية، الهوية الحضارية.

---

[1] كارشناسى ارشد، رشته تاريخ تمدن اسلامى، مجتمع آموزش عالى تاريخ، سيره و تمدن اسلامى، جامعه المصطفى العالميه.

المقدمة

شهدت منطقة غرب أفريقيا خلال القرون الأخيرة تحولات عميقة فی بنيتها الدينية والاجتماعية والسياسية، كان أبرزها انتشار الإسلام وتغلغله فی المجتمعات المحلية، ثم مواجهة هذه المجتمعات لتحديات الاستعمار الفرنسی. لعب القادة المحليون والشخصيات الدينية، وعلى رأسهم شيوخ الطرق الصوفية، دوراً محورياً فی تنظيم المقاومة ضد الاستعمار، مستندين إلى مكانتهم الروحية والاجتماعية، وإلى عمق الجذور الإسلامية فی المنطقة (عطية، ۱۹۸۱: ۸۷-۸۵).

انتشر الإسلام فی غرب أفريقيا منذ القرون الأولى الهجرية، عبر قوافل التجار والدعاة والعلماء الذين جابوا الصحارى والسهول، فأسسوا الممالک الإسلامية والمدارس القرآنية والمساجد، ورسخوا تعاليم الإسلام فی نفوس السكان. وقد تميزت هذه المرحلة بتفاعل إيجابی بين الإسلام والمجتمعات المحلية، حيث وجد الأفارقة فی الدين الجديد منظومة قيمية وروحية تتناسب مع فطرتهم وتطلعاتهم، وساهمت الطرق الصوفية، خاصة القادرية والتيجانية، فی نشر التعليم الدينی والتكافل الاجتماعی، وبناء الزوايا التی أصبحت مراكز إشعاع علمی وثقافی (العواضی، ۲۰۱۱: ۷۳-۷۵).

مع دخول الاستعمار الفرنسی إلى غرب أفريقيا، واجهت المجتمعات الإسلامية تحديات جديدة، إذ عمد المستعمرون إلى فرض سيطرتهم بالقوة، وسعوا إلى تقويض نفوذ الزعامات الدينية وتغيير البنية الثقافية والاجتماعية للسكان. لكن هذه السياسات الاستعمارية قوبلت بمقاومة شرسة قادها القادة المحليون وشيوخ الطرق الصوفية، الذين لم يكتفوا بالدعوة والإرشاد، بل نظموا حركات مقاومة مسلحة وثقافية، ورفضوا التعاون مع السلطات الفرنسية، كما حدث فی السنغال ومالی وغينيا وغيرها (عبد العزيز عبد الله، ۱۹۸۱: ۳۱۰-۳۱۲).

برزت الطريقة القادرية كإحدى أقدم وأهم الطرق الصوفية فی المنطقة، حيث أسهم شيوخها فی نشر الإسلام وتعزيز الهوية الدينية، كما لعبوا دوراً فی توحيد الصفوف ومقاومة محاولات الاستعمار لطمس الثقافة الإسلامية. أما الطريقة التيجانية، فقد تميزت بدورها الحضاری والتربوی، إذ أنشأت الزوايا والمدارس، وأسهمت فی تحرير العبيد ونشر العلوم الإسلامية، كما شارک عدد من شيوخها، مثل الحاج عمر الفوتی، فی قيادة المعارک ضد الاحتلال الفرنسی، وتأسيس دول إسلامية قاومت الوجود الأجنبی (العواضی، ۲۰۱۱: ۲۱۴-۲۱۶).

من خلال دراسة هذه المحاور، يتضح أن المقاومة ضد الاستعمار الفرنسى فى غرب أفريقيا لم تكن مجرد مواجهة عسكرية أو سياسية، بل كانت حركة شاملة قادها القادة المحليون والشخصيات الدينية، مستندين إلى إرث إسلامى عميق، وإلى شبكة من الزوايا والمدارس والمجتمعات الصوفية التى شكلت الحصن الأول للدفاع عن الهوية والدين والوطن.

وجدير بالذكر أن القادة والشخصيات الدينية فى غرب أفريقيا قاومت الاستعمار بأساليب ومناهج مختلفة ومتنوعة، وكانت هذه النهضة باسم الإسلام ونصرته، وسنذكر أهم هذه الأساليب التى قاموا بها فى المنطقة وتكالبوا بها على القوات الفرنسية.

١. انتشار الإسلام كأساس للمقاومة

حينما دخل الإسلام إلى القارة الأفريقية من جهتها الشمالية، وتحديداً عبر مصر، بدأ انتشاره يسلك مساراً أفقياً نحو بلاد المغرب العربى، ثم واصل امتداده إلى منطقة غرب أفريقيا. أما تقدّمه فى العمق الغرب أفريقى، فقد تأخر بعض الوقت بسبب العوائق الطبيعية، وعلى رأسها الصحراء الكبرى التى امتدت على مساحات شاسعة. ومع ترسّخ الوجود الإسلامى فى شمال أفريقيا، انطلقت أولى محاولات نشر الدين الحنيف فى أقاليم الصحراء ومواطن الشعوب الزنجية (جلال يحى، ١٩٩٩: ٢٧).

وقد تباينت آراء المؤرخين حول زمن الاتصال الأول بين الإسلام وبلاد ما وراء الصحراء الغربية، أو ما يُعرف بالسودان الغربى، ومهما كان الخلاف حول البدايات، فإن الإجماع يكاد ينعقد على أن التجار والمرابطين كانوا أصحاب الدور الحاسم فى نقل الإسلام إلى السودان الغربى. فقد سيطروا على بعض المدن سنة ١٠٥٥م (بازينة، ٢٠١٠: ١٨٦)، وجذبوا عدداً من زعماء التكرور فى السودان الغربى إلى الإسلام، فانتشر أوّلاً بين الطبقات العليا ثم تسرب شيئاً فشيئاً إلى عامة الناس (جلال يحى، ١٩٩٩: ٢٩).

لقد فتح دخول الإسلام إلى مناطق الصحراء وبلاد الزنوج آفاقاً رحبة للتجار المسلمين، إذ وجدوا هناك مكاسب تجارية عظيمة، فكانوا يبيعون الملح وسلعاً أخرى مقابل الذهب وريش النعام والعاج. ومع توغّلهم فى أعماق السودان الغربى، كان الإسلام يسير معهم جنباً إلى جنب؛ فالتجارة لم تكن مجرد وسيلة للكسب المادى، بل صارت جسراً غير مباشر لنشر العقيدة الإسلامية. وهكذا ارتبط الإسلام بالتجارة ارتباطاً وثيقاً عبر طرق القوافل الممتدة بين

المغرب والسودان، وكان لهذه التجارة دور بارز فى انتشار الإسلام فى مناطق السنغال وأعالى نهر النيجر (جلال يحى، ۱۹۹۹: ۲۹). لتغلغل الإسلام فى أفريقيا الغربية عدة أسباب وأهمها: التجار والمرابطون.

أولاً: حركة التجارة

تلعب التجارة دوراً هاماً فى نشر الإسلام فى غرب أفريقيا، لأن التجارة والإسلام فى غرب أفريقيا مرتبطان كل الارتباط (توماس أرنولد، ۱۹۵۷: ۱۲۹). فقد كان التجار المسلمون فى تنقلاتهم بين المراكز التجارية يحتكون بالزنوج ويؤثرون فيهم بسلوكهم الشخصى وأمانتهم ونظافتهم، وكثيراً ما انتهى هذا الاحتكاك بدخول كثيرين من هؤلاء الزنوج فى الإسلام. فقد كان بعض من هؤلاء التجار يجمعون بين التجارة والعلم (جلال يحى، ۱۹۹۹: ۳۳)، فإذا ما استقر بهم المقام أنشأوا حلقات لتعليم القرآن أو للعبادة إلى جانب نشاطهم التجارى. ولكن هؤلاء عادةً يكونون قلة ولم يكونوا متفرغين لهذا الأمر تفرغاً كاملاً لانشغالهم بتجارتهم، فنجدهم يقومون باستقدام الفقهاء والعلماء معهم لهذه المناطق وخاصة عندما يكثر عدد المسلمين بها ليتولى هؤلاء العلماء تعليم الناس أمور دينهم. وعمد بعض التجار إلى تشكيل المدارس والمساجد، وكانوا يختارون الأذكياء من السكان الأصليين لإرسالهم إلى المعاهد الإسلامية الشهيرة فى مصر والشمال الأفريقى ليتلقوا العلم ويعودوا قادة للفكر الإسلامى فى بلادهم. وعندما كثر إقبال الأفريقيين على السفر للتعلم فى المعاهد العلمية الشهيرة، عمد كثير من التجار المسلمين إلى بناء بيوت لهم يعيشون بها طيلة فترة دراستهم، وقدموا لهم كافة احتياجاتهم (حسن إبراهيم حسن، ۱۹۸۴: ۱۱). وبهذا المنهج تغلغل الإسلام إلى كثير من بلدان غرب أفريقيا فى ركاب التجار ونتيجة لنشاطهم، وانتشر بعد ذلک أكثر بانتشار نفوذ المسلمين، فقد أصبح الإسلام بمثابة تصريح مرور لمن يريد التجارة بنجاح فى أفريقيا (ضيدان، ۱۹۹۳: ۱۶۷).

ثانياً: حركة المرابطين أو الدعاة

دخول الإسلام إلى غرب أفريقيا عملية متعددة الوسائل والمراحل: بدأ تأثيره عبر تواصل تجار الصحراء (الأمازيغ، العرب) مع الممالک السودانية، ثم عادت صورته تتغيّر بفعل حركات إصلاحية ودينية (مثل المرابطين) وتغلغل العلماء والصوفية لاحقاً، فشكّلت شبكة من المدارس والمساجد والطرق الدينية التى رسّخت التحوّل الإسلامى على مدى قرون.

لا يمكن بأى حال من الأحوال إغفال دور الدعاة فى نشر الإسلام فى غرب القارة الأفريقية. والجدير بالذكر أن رحلات الدعاة إلى هناك لم تكن ضمن منهجية معينة من قبل الجهة الحاكمة أو منظمات خاصة بالدعوة مثلاً، فالدعاة يقومون بالدعوة طلباً لمرضاة الله تعالى للحصول على الأجر والثواب، إذ أن الداعية أكثر اهتماماً بأداء واجباته الدينية، ولم يكن بحاجة إلى الخوف من مراقبة سلطة دنيوية كما هو الحال فى الإرساليات التبشيرية التى تدعمها فرنسا والاستعمار والتى لها غايات وأغراض من وراء ذلك. فإن الإسلام يختلف تمام الاختلاف، حيث أن الداعية الإسلامى يعمل من دون واسطة بينه وبين ربه، وكان السلوك الطيب لهؤلاء الدعاة هو الذى يجلب الناس إلى اعتناق الدين الحنيف. ولنأخذ أمثلة من مسيرة هؤلاء الدعاة حديثاً: ففى عام ١٩٥٥م ظهر مبشر أفريقى يُدعى نواغى (Nwagui)، أكمل دراسته الدينية فى الكليات التبشيرية وأتقن اللغة الإنجليزية، عمل هذا المبشر على نشر الدين المسيحى وبناء الكنائس، وإذ به ذات يوم يقبل الإسلام بعد أن سافر إلى السنغال والتقى بأحد الدعاة هناك، وقد اهتدى إلى شيخ الطريقة التيجانية الحاج أحمد إبراهيم أنياس فى مدينة كولاك (Kaolack) فى السنغال، وتتلمذ على يديه ثلاث سنوات تلقى خلالها مبادئ الإسلام إلى أن صار داعية وعالماً يدعو إلى الدين الإسلامى. وعندما عاد إلى نيجيريا اعتنق الإسلام على يديه ستة آلاف شخص من بلدته التى يعيش فيها، وهدموا الكنيسة التى أنشأوها وأشعلوا فيها النار. ويعد نواغى أحد دعاة الإسلام فى شرقى نيجيريا (على بارى، ٢٠٠٧: ٢٣). وبهذا المنهج دخل الدين الحنيف وانتشر فى غرب القارة عبر المرابطين والدعاة.

٢. الطرق الصوفية

يُعدّ التصوف الإسلامى أحد أهم العوامل التى ساهمت فى انتشار الإسلام فى غرب أفريقيا، خاصة منذ القرن السابع عشر حتى القرن العشرين. فقد مثلت الطرق الصوفية إطاراً منظماً مكّن الإسلام من التغلغل فى الحياة الاجتماعية والاقتصادية والثقافية للشعوب الأفريقية، بفضل طابعها الروحى، ومرونتها فى التفاعل مع البيئة المحلية، وقدرتها على تقديم نموذج إيمانى قريب من الإنسان الأفريقى (J. Spencer Trimingham, ١٩٩٨: ١٧٨).

لعبت الطرق الصوفية فى غرب أفريقيا دوراً ريادياً فى نشر الإسلام وتصحيح العقيدة بعد

أن مارس السكان بعض العادات الوثنية التى اختلطت بالمثل والقيم الإسلامية، وصار من الضرورى ظهور رجال الإصلاح والتجديد ليؤسّسوا مجتمعات إسلامية تتخذ من الشريعة الغراء منهاجاً وسبيلاً للحكم. والإصلاح والتجديد فى غرب أفريقيا كان فى قالب صوفى لا يمت بصلة لما قام به محمد عبده (على بارى، ۲۰۰۷: ۴۲).

ومما هو جدير بالملاحظة: أن نشاط الصوفية فى غرب أفريقيا هو من ضمن تلك الحركات الإصلاحية والدعوية، وكان يقوم فى الغالب على الإرشاد ويعتمد على انتشار التعاليم الإسلامية، ويحث على حب الجار وصلة الرحم والتسامح مع المسيحيين واستعمال كل وسائل الترغيب فى نشر الدعوة إلى الإسلام، رغبة فى نشر الدين ابتغاء وجه الله وحسن الثواب فى الآخرة وهداية الناس (على بارى، ۲۰۰۷: ۴۳).

نفهم خلال البحث أن الإسلام انتشر فى غرب أفريقيا عبر مسار طويل تداخلت فيه التجارة والدعوة والروحانية، فكان دخوله سلمياً قائماً على القدوة الحسنة لا على السيف. لعب التجار المسلمون والمرابطون دوراً أساسياً فى ترسيخ الإسلام فى الممالک الأفريقية، بينما أسهم العلماء والدعاة فى نشر التعليم وبناء المؤسسات الدينية. ومع بروز الطرق الصوفية كالتيجانية والقادرية، أصبح الإسلام ديناً شعبياً متجذراً فى الثقافة الأفريقية، متسماً بالتسامح والمرونة، مما جعله جزءاً من هوية الشعوب ومصدراً لوحدتها الحضارية والدينية. وهكذا تحول الإسلام من دين وافد إلى عنصر أصيل فى البنية الاجتماعية والروحية لغرب أفريقيا.

أولاً: تاريخ الانتشار قبل الاستعمار (ملخص)

يُعدّ انتشار الإسلام فى غرب أفريقيا من أبرز الظواهر التاريخية التى أسهمت فى تشكيل البنية الثقافية والاجتماعية والسياسية للمنطقة. فقد دخل الإسلام إلى غرب أفريقيا تدريجياً منذ القرون الوسطى عبر التجار والعلماء والدعاة القادمين من شمال أفريقيا، واستطاع أن يترسخ فى الممالک الكبرى مثل مالى وسنغاى وسوكوتو، وأن يؤسس منظومة حضارية متكاملة قبل مجيء الاستعمار الأوروبى. ومع مرور الوقت، أصبحت المدن الإسلامية مثل تمبكتو مراكز علمية كبرى، وبرزت الطرق الصوفية كقوة دينية وروحية عملت على نشر الدعوة وتعميق الوعى الإسلامى فى المجتمعات المحلية (عطية، ۱۹۸۱: ۸۵-۸۷).

ثانياً: استمرار الانتشار بعد الاستعمار (ملخص)

بحلول منتصف القرن التاسع عشر، كان الإسلام قد ترسخ فى غرب أفريقيا وأصبح الدين

الرئيس فى المراكز التجارية والإمبراطوريات الكبرى مثل مالى وسونغاى وسوكوتو. فقد غدت هذه الممالک الإسلامية تمتلک مؤسسات دينية وتعليمية وإدارية قائمة على أحكام الشريعة الإسلامية، وأصبحت الثقافة الإسلامية تشكل الإطار الذى تنتظم فى داخله الحياة الاجتماعية والسياسية والتعليمية (عطية، ١٩٨١: ٨٥).

كانت بعض المدن مثل تمبكتو وجنى وغاو مراكز إشعاع علمى ودينى، ازدهرت فيها حلقات العلم ومجالس الفقهاء، وانتشرت المدارس القرآنية والمعاهد التى خرجت علماء وقضاة ودعاة أثروا الحياة الفكرية فى المنطقة. وقد كانت مدينة تمبكتو خاصةً القلب العلمى النابض لغرب أفريقيا، بما احتوته من مكتبات عامرة بالمخطوطات العربية والإسلامية، ومكانة مرموقة لعلمائها الذين كان لهم دور سياسى واجتماعى واضح فى تسيير شؤون المجتمع (العواضى، ٢٠١١: ٧٣). فى تلک المرحلة، أصبحت الطرق الصوفية إحدى أهم الوسائل التى ساهمت فى توسيع رقعة الإسلام وتعميق جذوره فى المجتمعات الأفريقية.

فقد لعبت الطريقة القادرية والطريقة التيجانية دوراً مركزياً فى ربط الدعوة الإسلامية بالحياة اليومية للناس، من خلال الزوايا الصوفية التى كانت مراكز عبادة وتعليم وخدمات اجتماعية. ومن خلال هذه الشبكات الروحية انتقل الإسلام إلى مناطق جديدة، وارتبط بوجدان الشعوب الأفريقية ارتباطاً قوياً، وأسهمت الزوايا فى تكوين نخبة دينية مثقفة حافظت على وحدة العقيدة فى مواجهة المؤثرات الخارجية (السعيد، ١٩٧٣: ١١٢-١١٣).

رغم هذا الانتشار الواسع، ظلت بعض المناطق الريفية النائية تحتفظ ببعض معتقداتها التقليدية وطقوسها المحلية، مما أدى إلى وجود تعدد دينى وثقافى داخل المجتمع الواحد. ومع ذلک، فقد ظل الإسلام هو الإطار الجامع الذى وحّد الشعوب والقبائل المختلفة، إذ وحدت اللغة العربية والثقافة الإسلامية بين هذه المجموعات تحت مظلة حضارية واحدة، وأصبحت الهوية الإسلامية رمزاً للانتماء المشترک لشعوب المنطقة (ديوب، ١٩٦٠: ٢١٧).

وعندما بدأ النفوذ الفرنسى يتغلغل فى غرب أفريقيا خلال النصف الثانى من القرن التاسع عشر، واجه مستعمرات ذات بنى دينية وتعليمية راسخة، وزعامات روحية تمتلک سلطة رمزية قوية فى المجتمع. كان الإسلام آنذاک يمثل قوة سياسية وثقافية قائمة بذاتها، ولذلک تحولت المقاومة ضد الاستعمار الفرنسى إلى حركة دينية فى جوهرها، خاصة فى مناطق مالى والسنغال. وقد جسد الحاج عمر الفوتى تال هذا الاتجاه حين دعا إلى الجهاد ضد الفرنسيين، معتبراً الوجود الاستعمارى اعتداءً على دار الإسلام، وتمكن من تعبئة القبائل

الإسلامية لمواجهة النفوذ الفرنسی (العواضی، ۲۰۱۱: ۲۱۵-۲۱۶).

یتضح لنا فی البحث أن الإسلام قبل الاستعمار الفرنسی لم یکن مجرد دین وافد علی غرب أفریقیا، بل تحوّل إلی حضارة راسخة أسّست لهویة دینیة وثقافیة جامعة، ووفّرت للمنطقة منظومة فکریة واجتماعیة متکاملة. وقد مهّد هذا الترسّخ المبکر لظهور مقاومة دینیة واعیة ضد الاستعمار لاحقاً، إذ دخل الفرنسیون إلی غرب أفریقیا لیجدوا مجتمعات إسلامیة موحّدة بالثقافة والعقیدة، تمتلک تراثاً فکریاً عمیقاً وشبکة مؤسسات روحیة متجذرة.

ثالثاً: ارتباط الانتشار بتشکیل قاعدة للمقاومة

عندما دخل الفرنسیون إلی غرب أفریقیا خلال النصف الثانی من القرن التاسع عشر، وجدوا أن الإسلام قد أصبح مکوّناً رئیسیاً فی الحیاة الثقافیة والاجتماعیة لشعوب المنطقة. وعلی الرغم من محاولات فرنسا الحد من نفوذ الإسلام، فإن الدین الإسلامی واصل انتشاره وتوسعه حتی أثناء فترات الاحتلال، بل شهدت العقود الأولی من القرن العشرین نهضة دینیة وتعلیمیة قادتها الزوایا والعلماء الصوفیون فی مواجهة السیاسات الاستعماریة. فقد حاولت الإدارة الفرنسیة إخضاع المدارس القرآنیة والزوایا لرقابة الدولة، إلا أن هذه المؤسسات تمکنت من التکیف والمقاومة فی الوقت نفسه، من خلال الحفاظ علی اللغة العربیة والتعلیم الدینی التقلیدی (عطیة، ۱۹۸۱: ۱۴۲-۱۴۳).

ترکز الوجود الفرنسی أولاً فی السنغال ومالی والنیجر وغینیا وساحل العاج، حیث اتبعت سلطات الاحتلال سیاسة تهدف إلی إضعاف النفوذ الدینی الإسلامی. فقامت بتقلیص سلطة القضاة الشرعیین، وفرضت نظاماً إدارییاً علمانیاً، وأغلقت بعض المدارس الإسلامیة، کما سعت إلی إدخال التعلیم الفرنسی بدلاً من التعلیم العربی الإسلامی. ومع ذلک، ظل الإسلام ینتشر فی الأریاف البعیدة عن المراکز الإداریة، مدعوماً بالنشاط الصوفی والدعوی الذی اتخذ طابعاً هادئاً لکنه فعّال فی المدی البعید (العواضی، ۲۰۱۱: ۲۲۴).

لعبت الطرق الصوفیة، وخاصة التیجانیة والقادریة، دوراً محوریاً فی استمرار انتشار الإسلام خلال الحقبة الاستعماریة. فقد تحولت الزوایا الصوفیة إلی مراکز لتعلیم القرآن واللغة العربیة والتربیة علی مبادئ الإسلام، کما أصبحت رمزاً للمقاومة الثقافیة والروحیة ضد محاولات التنصیر والفرنسة. ففی السنغال، مثلاً، تمکنت الطریقة المریدیة التی أسسها الشیخ أحمدو بامبا من تکوین مجتمع إسلامی مستقل داخل النظام الاستعماری، یعتمد علی العمل والتعلیم الدینی، مما جعلها أحد أعمدة بقاء الهویة الإسلامیة فی البلاد. وقد ذکر الباحث

العواضى (٢٠١١: ٢٢٤) أن الزوايا الصوفية تحولت أثناء الاستعمار إلى مدارس لحفظ القرآن ومراكز لإعداد الدعاة، ونجحت فى الحفاظ على الشخصية الإسلامية رغم الرقابة الفرنسية الصارمة.

أمّا فى مالى والنيجر، فقد استمرت الطريقة التيجانية فى التوسع رغم التضييق، وأصبح شيوخها مرجعيات روحية واجتماعية تلجأ إليها القبائل طلباً للفتوى أو الصلح. ونتيجة لذلک، تعززت مكانة الإسلام كدين مقاوم وموحّد للشعوب الأفريقية، خصوصاً فى مواجهة حملات التبشير المسيحى التى فشلت إلى حد كبير فى إحداث تغيير ملموس فى المجتمعات المسلمة (السعيد، ١٩٧٣: ١٤٨-١٤٩).

لقد أدركت السلطات الفرنسية مع مرور الوقت أن الإسلام لا يمكن اجتثاثه من المجتمعات الأفريقية، فبدأت فى اعتماد سياسة التعايش الحذر. فسمحت بإعادة فتح بعض المدارس القرآنية، وسمحت للزعماء الدينيين بممارسة نشاطهم ضمن نطاق محدود، شرط عدم انخراطهم فى السياسة أو الدعوة للمقاومة. لكن رغم هذه المحاولات، ظل الإسلام يشكل بنية ثقافية موازية للدولة الاستعمارية، واستمرت شبكة الزوايا الصوفية فى ربط القرى والمدن بمركزها الروحى فى شمال أفريقيا والمشرق العربى (العواضى، ٢٠١١: ٢٣٢). وفى الوقت نفسه، أسهم التواصل مع العالم الإسلامى الأوسع فى تعزيز الانتشار الدينى والفكرى. فقد ازداد عدد الحجاج من غرب أفريقيا إلى مكة المكرمة، مما أتاح لهم العودة بأفكار إصلاحية وتجديدية أثّرت فى البيئة الدينية المحلية. كما كان للاتصال بالعلماء فى الأزهر والمغرب دور فى تجديد الخطاب الإسلامى فى المنطقة، وربطها فكرياً بالعالم الإسلامى الحديث (عطية، ١٩٨١: ١٤٥).

ومن اللافت أن الإسلام لم يعد يقتصر على الطبقات المتعلمة أو المدن الكبرى، بل امتد إلى المجتمعات الزراعية والبدوية التى لم تصلها الدعوة فى العصور السابقة. وقد كان انتشار الإسلام فى هذه البيئات يتم غالباً عبر العلاقات التجارية والمصاهرة والتعليم القرآنى المتنقل، مما جعله ديناً شعبياً واسع النفوذ (السعيد، ١٩٧٣: ١٥١).

إن النتيجة البارزة لفترة الاحتلال الفرنسى هى أن الإسلام خرج من مرحلة الاضطهاد المباشر إلى مرحلة التكيف والصمود، واستطاع أن يحافظ على موقعه كدين الأغلبية، بل ازداد رسوخاً بفضل الشبكات الصوفية والتعليم التقليدى الذى حفظ اللغة العربية والهوية الإسلامية من الذوبان. وبذلک، تحول الإسلام إلى رمز المقاومة الثقافية والسياسية ضد

الاستعمار (العواضی، ۲۰۱۱: ۲۳۳)، ومصدر لوحدة المجتمعات الأفریقیة فی مواجهة مشروع الهیمنة الفرنسی.

یمکن القول إنّ الإسلام فی غرب أفریقیا بعد دخول المستعمرین الفرنسیین لم یعرف التراجع، بل أثبت حیویته التاریخیة وقدرته علی التکیّف والمقاومة. فعلی الرغم من محاولات فرنسا فرض التعلیم العلمانی والسیطرة علی المؤسسات الدینیة، ظل الإسلام قوة ثقافیة وروحیة فاعلة، وانتقل من مرحلة السلطة السیاسیة إلی مرحلة التأثیر الاجتماعی والثقافی العمیق. لقد نجح الإسلام، عبر الزوایا والطرق الصوفیة والعلماء، فی أن یکون درعاً واقیاً للهویة الأفریقیة الإسلامیة، وأداة لحفظ اللغة العربیة والتعلیم الدینی، بل ومصدر إلهام لحرکات المقاومة لاحقاً. وبهذا خرج الإسلام من مرحلة الاستعمار أقوی مما کان علیه قبلها، بعدما ترسخ فی القلوب والعقول أکثر من أی وقت مضی.

۳. دور شیوخ الطرق الصوفیة فی المقاومة

شیوخ الطرق الصوفیة فی غرب أفریقیا لم یکونوا کتلةً واحدةً أمام الاستعمار الفرنسی؛ بل کانوا طیفاً واسعاً من المواقف: بعضهم قاد مقاومات مسلحة أو حرکات جهادیة، وبعضهم اتخذ سیاسة التفاوض والتسویة حفاظاً علی المؤسسات الدینیة (الزوایا، المدارس القرآنیة)، وبعضهم شکّل حرکات إصلاحیة واجتماعیة تحولت ـ فی حالات کثیرة ـ إلی قوة مقاومة مدنیة أو احتجاجیة. لفهم موقف شیوخ الطرق الصوفیة (خصوصاً القادریة والتیجانیة) یجب الرجوع إلی المصادر التاریخیة المعتبرة.

أولاً: الطریقة القادریة

تنسب هذه الطریقة إلی الشیخ الإمام العالم الزاهد شیخ الإسلام (بازینة، ۲۰۱۰: ۲۰۳) أبو صالح سیدی عبد القادر الجیلانی، وهو ابن موسی بن عبد الله بن یحیی بن محمد بن داود بن موسی الجون بن عبد الله المحض بن الحسن بن الحسن المثنی بن علی بن أبی طالب (ع). وهو من أشرف النسب، وقد ولد فی عام ۴۷۱هـ – ۱۰۷۸م، فی قصبة من بلاد جیلان أیام المستنصر بالله العباسی. وإقلیم جیلان یحده من الشمال بحر قزوین، ومن الجنوب قزوین وأذربیجان، ومن الشرق مازندران، ویقع وراء طبرستان (بدوی، ۲۰۰۳: ۳). وقد دخل بغداد سنة ۴۸۸هـ وکان عمره ۱۸ سنة فی عهد الخلیفة المستظهر بالله بن المقتدر، حکم من سنة ۴۸۷هـ إلی سنة ۵۱۲هـ حیث قضی فیها ۷۳ سنة (نجوی، ۲۰۰۶: ۱۳). وقد عاش فی

بغداد وتصدى للتدريس والإفتاء على مذهب الإمام أبى حنيفة النعمان واشتهر بالزهد والتقوى (الهادى، ٢٠١٧: ٦٨).

تعتبر الطريقة القادرية من أقدم الطرق الصوفية فى دول أفريقيا جنوب الصحراء قبل أن تحتل الطريقة التيجانية زمام الأمور. ويمكن الكلام عن الفروع الثلاثة للطريقة القادرية فى أفريقيا: يتعلق الأمر بالطريقة القادرية الكنتية نسبة إلى الشيخ الكنتى، والطريقة البكائية نسبة لمؤسسها الشيخ سيديا، والطريقة الفاضلية التى تعود للشيخ سعد بوه (ربيع رشيدى، بدون تاريخ: ٥٦). ولم تبلغ القادرية أعلى مراتب الازدهار والانتشار إلا فى أيام الشيخ المختار الكنتى (١٢٢٦هـ – ١٨٢١م) واشتهرت شيعتهم بالبكائية الكنتية. والشيعة الثانية بالفاضلية نسبة إلى الشيخ محمد فاضل بن ماسين القلقمى الذى نشأ فى منطقة الحوض الشرقى، ومن هناك انتقل إلى قرية أجريف الواقعة شمال مدينة شنقيط بولاية أدرار (بوها، بدون تاريخ: ٢٧).

عرفت الطريقة القادرية انتشاراً واسعاً فى أنحاء العالم الإسلامى بكرامة أولاد الشيخ عبد القادر الجيلانى ومريديه، وبفضل جهود عثمان بن محمد بن فودى فى العصر الحديث ترسخت الطريقة القادرية فى غرب أفريقيا (الهادى، ٢٠١٧: ٧١).

تطور الطريقة القادرية:

تعد الطريقة القادرية من بين أقرب الطرق الصوفية إلى مذهب أهل السنة والجماعة، وقد ازدهرت انتشاراً واسعاً فى كل البلدان الإسلامية (بازينة، ٢٠٠٣: ٢٣١)، خاصة فى غرب القارة الأفريقية حيث تغلغلت فى جميع المناطق وكان لها أكبر عدد من الأتباع، وهى أوسع الطرق الصوفية (كليفورد، ١٩٨٣: ١٤١). وقد دخلت هذه الطريقة إلى غرب أفريقيا فى القرن ١٥م بسبب وفد من المهاجرين الذين اتخذوا واحة توات بجنوب غرب المغرب مقراً لهم، ثم انتقلوا إلى ولاتة بجنوب شرقى موريتانيا فجعلوا منها أول مركز لطريقتهم (الهمشرى، ١٩٩٧: ٦٢). ولكن أسباطهم طردوا من هذه المدينة فلجأوا إلى تمبكتو بداية القرن التاسع عشر الميلادى (بدوى، ٢٠٠٣: ٢٣)، وهناك حصلت على قمة المجد والثناء وظهر تطورها الحقيقى على يد قبائل الهوسا الأفريقية وقبائل الفولانى التى كانت تسكن فى حوض السنغال.

دور شیوخ الطریقة القادریة فی مقاومة الاستعمار الفرنسی فی غرب أفریقیا:

شکّلت الطریقة القادریة إحدی أبرز الطرق الصوفیة التی انتشرت فی غرب أفریقیا منذ القرن السابع عشر المیلادی. وقد لعبت هذه الطریقة دوراً دینیاً وروحیاً واجتماعیاً وسیاسیاً بالغ الأهمیة، خاصة خلال فترة الاستعمار الفرنسی، إذ تحولت زوایاها إلی مراکز للتعلیم والمقاومة الثقافیة والتنظیم الاجتماعی فی وجه الاحتلال (عطیة، ۱۹۸۱: ۲۲۰–۲۲۵). لقد کانت الطریقة القادریة، بحکم انتشارها فی السنغال ومالی وموریتانیا والنیجر، أکثر الطرق تأثیراً فی بناء مقاومة سلمیة منظمة ضد النفوذ الفرنسی، تجمع بین التربیة الروحیة والجهاد الثقافی والاجتماعی.

۱- المقاومة الثقافیة والدینیة:

کانت أولی صور المقاومة القادریة ضد الاستعمار الفرنسی هی المقاومة الثقافیة والدینیة. أنشأ شیوخ القادریة زوایا علمیة ومدارس قرآنیة حافظت علی تعلیم اللغة العربیة والفقه المالکی والتصوف السنی، فصارت هذه الزوایا مراکز لتحصین المجتمع المسلم من محاولات التبشیر والتنصیر التی دعمتها فرنسا. ومن أبرز من جسّد هذا الاتجاه الشیخ سیدی المختار الکبیر القادری (ت. ۱۸۱۱م) الذی أسس الزاویة القادریة فی منطقة فوتا طورو شمال السنغال. کان سیدی المختار یری أن الحفاظ علی التعلیم الإسلامی ووحدة المجتمع شرط أساسی لمواجهة خطر الهیمنة الفرنسیة المتزایدة، ولذلک عمل علی توحید الزوایا القادریة وربطها بسلاسل التعلیم القرآنی فی تمبکتو، مما هیأ قاعدة فکریة وروحیة للمقاومة اللاحقة (ولد السعد، ۲۰۰۴: ۱۵۵). وقد أشارت أکثر المصادر التاریخیة إلی أن الزوایا القادریة فی السنغال ومالی أصبحت حائط صدّ أمام التغلغل الثقافی الفرنسی من خلال ترسیخ التعلیم الإسلامی واللغة العربیة.

۲- التنظیم الاجتماعی والاقتصادی:

لم تقتصر مقاومة القادریة علی الجانب الدینی، بل شملت تنظیم المجتمعات اقتصادیاً واجتماعیاً فی مواجهة النظام الاستعماری الفرنسی. ففی مالی (السودان الفرنسی سابقاً)، برز الشیخ محمد الفاضل بن الشیخ ماء العینین (ت. ۱۹۱۴م)، الذی أسس زاویته فی منطقة کنتة، وعمل علی تنظیم القبائل المحیطة فی وحدات اقتصادیة مستقلة تعتمد علی الزراعة المحلیة والتجارة الداخلیة، لتقلیل تبعیتها للأسواق الفرنسیة. کما رفض فرض الضرائب الاستعماریة

والتجنيد القسرى الذى فرضته السلطات الفرنسية على السكان المحليين (النعيم، ٢٠٠٧: ٢٣١). لقد ساهمت الزوايا القادرية فى توفير شبكات دعم اقتصادى للفقراء والمزارعين والرعاة، وكانت تقوم بجمع الزكاة وتوزيعها داخل المجتمع المحلى (ولد السعد، ٢٠٠٤: ١٦٢)، مما خفف من آثار السياسة الضريبية الفرنسية القاسية، وأضعف قبضة الإدارة الاستعمارية على الريف.

٣- الدعم غير المباشر للحركات الجهاديةٔ:

رغم الطبيعة السلمية للطريقة القادرية، إلا أن كثيراً من شيوخها دعموا الحركات الجهادية المناهضة للفرنسيين دعماً غير مباشر، من خلال تهيئة القاعدة الدينية وتنظيم المجتمع. فقد تأثر الحاج عمر الفوتى تال (ت. ١٨٦٤م ـ رغم كونه تيجانياً لاحقاً) ـ فى بداياته بتعاليم القادرية، وبخاصة فكرة الجهاد فى سبيل إصلاح الأمة التى أخذها عن مشايخ القادرية فى فوتا جالون. وقد استفاد فى حركته الجهادية من شبكة الزوايا القادرية المنتشرة فى السودان الغربى التى سهلت له الدعوة والتعبئة (الزاوى، ٢٠٠١: ١١٩-١٢١). كما برز الشيخ أحمدو هامبو (ت. ١٩٣١م) فى منطقة ماكناسالى بمالى، وهو أحد شيوخ القادرية الذين رفضوا التجنيد القسرى والضرائب الباهظة التى فرضها الفرنسيون. دعا الشيخ أتباعه إلى الصبر والثبات والمقاطعة الاقتصادية للفرنسيين، مستلهماً من تراث الجيلانى أن الصبر جهاد عظيم. وقد أدت حركته إلى اضطرابات واسعة اعترفت بها التقارير الفرنسية بوصفها حركة مقاومة صوفية منظمة (النعيم، ٢٠٠٧: ٢٣٦-٢٣٧).

٤- الإرث القادرى فى مواجهة الاستعمار الفرنسى:

رغم أن القادرية لم تتبنّ أسلوب المقاومة المسلحة كخيار رئيسى، فإن تأثيرها فى تشكيل الوعى الدينى والثقافى كان عميقاً وممتداً. لقد نجحت الزوايا القادرية فى أن تكون مراكز لتثبيت الهوية الإسلامية، وحاضنات للمجتمع الأهلى المستقل عن الإدارة الفرنسية. ومع اقتراب مرحلة الاستقلال فى أواخر الخمسينيات (١٩٥٨—١٩٦٠م)، كان لأتباع القادرية حضور بارز فى الحركات الوطنية التى طالبت بالتحرر (عطية، ١٩٨١: ٢٢٥)، خصوصاً فى السنغال ومالى وموريتانيا. وتشير الدراسات التاريخية الصوفية إلى أن الطريقة القادرية تظل حتى اليوم رمزاً للوحدة الإسلامية والممانعة الثقافية فى وجه الغرب، خاصة فى السنغال ومالى، حيث يرتبط كثير من القادة الدينيين والسياسيين بجذور قادرية.

یتضح لنا من دراسة دور شیوخ الطریقة القادریة فی مقاومة الاستعمار الفرنسی أن هذه الطریقة لم تکن مجرد حرکة روحیة، بل شکلت منظومة مقاومة متکاملة. لقد قاوم شیوخ القادریة الاستعمار عبر التعلیم والتربیة والتنظیم الاجتماعی، فأسّسوا زوایا ومدارس حافظت علی الدین واللغة، وأقاموا مؤسسات اقتصادیة واجتماعیة مستقلة. ومن خلال شخصیات مثل سیدی المختار الکبیر ومحمد الفاضل ومالک سی وأحمدو هامبو، تجسدت المقاومة الصوفیة فی أبهی صورها، حیث تداخل فیها الجهاد الروحی مع الاجتماعی والسیاسی. ولا یزال إرث القادریة فی غرب أفریقیا شاهداً علی أن التصوف الإسلامی لم یکن انزواءً، بل کان أداة فاعلة فی مقاومة الاستعمار والحفاظ علی الهویة الإسلامیة للأمة.

ثانیاً: الطریقة التیجانیة:

تمیّزت الطریقة التیجانیة منذ تأسیسها فی نهایة القرن الثامن عشر علی ید الشیخ أحمد التیجانی (ت. ۱۸۱۵م) بامتزاجها بین البُعد الروحی والتنظیم الاجتماعی الواسع. ومع انتقالها إلی غرب أفریقیا علی ید تلامذته، خصوصاً فی فوتا تورو، فوتا جالون، وتمبکتو، اتخذت أبعاداً جهادیة وسیاسیة واضحة. فعندما بدأ التوسع الفرنسی فی المنطقة خلال القرن التاسع عشر، لم تبقَ الزوایا التیجانیة علی الحیاد، بل انخرط کثیر من شیوخها فی دعم الحرکات الجهادیة دفاعاً عن الدین والهویة، مستخدمین مواردهم الروحیة والبشریة فی تعبئة المجتمعات لمواجهة الاحتلال. وقد تَنَوَّع هذا الدعم بین القیادة العسکریة المباشرة وغیر المباشرة، وتجنید المریدین، وتمویل الجهاد، وتوفیر الشرعیة الدینیة للحرکات المسلحة ضد الاستعمار.

۱- الدعم المباشر للحرکات الجهادیة:

لم یکن جمیع شیوخ الطریقة التیجانیة دعاة زهد وانعزال عن واقعهم السیاسی، بل أسهم بعضهم بصورة مباشرة فی دعم الحرکات الجهادیة التی نشأت فی غرب أفریقیا خلال القرن التاسع عشر. وقد اتخذ هذا الدعم صوراً متعددة شملت القیادة العسکریة المباشرة، والتعبئة الدینیة، وتجنید الأتباع، وتوفیر الشرعیة الدینیة والسیاسیة للمقاومة ضدّ القوی الأجنبیة. ومن أبرز النماذج التی تجسّد هذا الدور الشیخ عمر بن سعید الفوتی تال (۱۷۹۴م–۱۸۶۴م)، الذی یُعدّ أحد أعلام التیجانیة الکبار فی غرب أفریقیا. فقد جمع بین الزعامة الصوفیة والقیادة السیاسیة والعسکریة، وأسّس دولةً إسلامیة عُرفت باسم (إمبراطوریة تکرور) امتدّت من فوتا

تورو إلى تمبكتو. استثمر الشيخ عمر تال مكانته الدينية فى تعبئة المريدين والزوايا التيجانية لمساندته فى مشروعه الجهادى؛ فكانت الزوايا بمثابة شبكات دعم لوجستى واجتماعى تمدّه بالمقاتلين والموارد (العواضى، ٢٠١١: ٢١٤). ويذكر ديفيد روبنسون (David Robinson) فى دراسته "The Holy War of Umar Tal" أن الفوتى حوّل الطريقة التيجانية من إطار روحى إلى منظومة سياسية ذات طابع جهادى منظّم، استطاعت أن تواجه الحكّام المحليين الموالين للفرنسيين وأن تصمد فى وجه التوسع الاستعمارى الفرنسى (Robinson, ٢٠٠٠: ١١٢).

كما شاركت فروع التيجانية الأخرى، ولا سيما فرع الهماوية فى مناطق مالى العليا وأعالى فولتا (بوركينا فاسو الحالية)، فى دعم المقاومة المحلية ضدّ التوغّل الفرنسى. هذا الدعم لم يكن دوماً مباشراً فى ساحة المعركة، لكنه تجسّد فى تجنيد الشبان، وتوفير المؤن، وتحصين الشرعية الدينية للحركات الجهادية، وهو ما تؤكده تقارير ضباط الإدارة الاستعمارية الفرنسيين الذين اشتكوا من التأثير الخطير للزوايا التيجانية فى تحريك الرأى العام المحلى ضد الإدارة الفرنسية (Harrison, ٢٠١٨: ٢٠٣). ويُلاحظ أنّ هذه المقاومة المباشرة لم تكن مقتصرة على رجال الدين فقط، بل كانت تعبيراً عن تداخل البنية الدينية والاجتماعية والسياسية للطريقة التيجانية؛ فالمرابطون والطلبة فى الزوايا لم يكونوا مجرد متعبّدين، بل جنوداً فى مشروع الدفاع عن الإيمان والأرض. وقد انتهت هذه المرحلة بسقوط دولة عمر تال سنة ١٨٦٤م، لكن النموذج الجهادى الذى مثّله ظلّ حياً فى الذاكرة الشعبية، يُستعاد رمزياً فى مقاومات لاحقة ضد الفرنسيين.

٢- الدعم غير المباشر للحركات الجهادية:

لم يكن دعم التيجانية للحركات الجهادية دائماً فى شكل تعبئة عسكرية صريحة؛ ففى كثير من الحالات، اتخذ شكلاً ثقافياً ودينياً غير مباشر، تمثّل فى تعزيز روح الجهاد والمقاومة عبر التعليم والإرشاد والدعوة، وبناء الوعى الجمعى الرافض للتبعية الاستعمارية. ففى مرحلة ما بعد سقوط دولة عمر تال، وبدأ تغلغل الإدارة الفرنسية فى أقاليم السودان الغربى، اتّجه العديد من شيوخ التيجانية ـ مثل الشيخ محمد الحاج مالك سى (١٨٥٥م–١٩٢٢م) فى السنغال والشيخ إبراهيم نياس (١٩٠٠م–١٩٧٥م) لاحقاً ـ إلى إعادة توجيه الجهاد نحو المجال الثقافى والدعوى، فركزوا على التعليم العربى الإسلامى، ونشر قيم الاستقلال الذاتى،

وتحفيـز المسـلمين علـى التمسـک بهـويتهم الإسـلامية فـى مواجهـة التغريـب الفرنسـى (Robinson, ۲۰۰۰: ۸۹). وكما يقـول ديفيـد روبنسـون (David Robinson) فـى كتابه (Robinson, ۲۰۰۰: ۱۰۲)، إنّ التيجانية فى السنغال خـلال نهايـة القـرن التاسـع عشر تحوّلت إلى ملاذ ثقافىّ يحافظ على الذاكرة الجهادية لعمر تال، لكنهـا اتخـذت موقفـاً أكثر حذراً وتكتيكاً منً الإدارة الفرنسية.

ومن جهة أخرى، لعبت الزوايا التيجانية دوراً كبيـراً فـى حمايـة اللغـة العربيـة والتعلـيم الإسلامى التقليدى، فكانت بمثابة حصون ثقافية قاومت فرنسة التعليم والمجتمع. هـذا الـدور غير المباشر أسهم فى تهيئة الأجيال الوطنية التـى سـتقود فيمـا بعـد حركـات التحـرّر فـى خمسينيات القرن العشرين. وقد أشار الباحث أحمد محمد العواضـى فـى كتابـه (العواضـى، ۲۰۱۱: ۱۱۷) إلى أن الطريقة التيجانية حافظت على هوية المسلمين فى غرب أفريقيا خـلال قرن من الضغوط الاستعمارية، وكانت تُغذّى الوعى السياسى المقاوم وإنْ كانت بصـورة غيـر مباشرة.

يتضح لنا ضمن البحث أنّ الحركات الجهادية قد شكّلت الـدعم المباشـر وغيـر المباشـر المتمثل فى العمل الدعوى والثقافى وجهين متكاملين من موقف التيجانيـة تجـاه الاسـتعمار الفرنسى. فالوجه الأول مثّله قادة مثل عمر الفوتى تال الذين جعلوا من الزاوية مركزاً عسكرياً وسياسياً، بينما مثّل الوجه الثانى شيوخ مثل مالک سى وإبراهيم نياس الذين حـافظوا علـى الاستمرارية الروحية والثقافية للمقاومة. وهكذا أثبتت الطريقة التيجانية أنّها كانت فاعلاً دينياً وسياسياً مركزياً فى التاريخ الغرب أفريقى، سواء فى ميـدان الجهـاد العسـكرى أو فـى بنـاء الوعى التحررى الذى مهد للاستقلال.

رابعاً: أساليب المقاومة الروحية والمسلحة

تنوّعت أساليب المقاومة الروحية والمسلحة فى غرب أفريقيـا الفرنسـية خـلال القـرنين التاسع عشر وبداية القرن العشرين، بحيث شكّلت هذه الأساليب منظومـة متكاملـة لمواجهـة النفوذ الفرنسى ومحاولاته فرض الهيمنة السياسية والثقافية. وقد جـاءت المقاومـة الروحيـة منطلقة من البنية الدينية والصوفية العميقة فى المنطقة، بينما اعتمدت المقاومة المسلحة علـى الدفاع المباشر عن الأرض فى مواجهة الجيوش الفرنسية التى حاولت التوغل تـدريجياً فـى أراضى السنغال ومالى والنيجر وموريتانيا.

ففى إطار المقاومة الروحية، مثّلت الطرق الصوفية ـ وخاصة التيجانية والقادرية ـ منصّات فكرية وروحية لتعبئة المجتمع ضد الوجود الفرنسى. ويُعدّ الشيخ عمر بن سعيد الفوتى النموذج الأبرز لهذه المقاومة، فهو لم يقدّم خطاباً دينياً تقليدياً، بل حوّله إلى برنامج تعبوى يرفض التوسع الفرنسى ويعتبره تهديداً لأمن المجتمعات الإسلامية (عطية، ١٩٨١: ٢٢١). وذكرت عدة النصوص التاريخية أنّ رسائله الدينية والسياسية التى وجّهها إلى زعماء فوتا تورو كانت تركز على ضرورة حماية العقيدة من «الاختراق الفرنسى» الذى لم يكن عسكرياً فقط بل ثقافياً أيضاً. وكما أشار المؤرخ عبد العزيز عبد الله إلى أنّ تأثير الدعوة التيجانية ـ خاصة دعوة عمر الفوتى ـ أنتج حالة وعى جماعى داخل المجتمعات السنغالية والمالية (عبد العزيز عبد الله، ١٩٨١: ٣١٠)، فأصبحت المؤسسات القرآنية والزوايا الصوفية مراكز حقيقية للممانعة الثقافية التى تعيق مشروع التمسيح الثقافى الذى حاول الفرنسيون فرضه.

ولا يقلّ تأثير الشيخ حماه الله التشيتى أهمية فى حقل المقاومة الروحية، فقد واجه النفوذ الفرنسى بأسلوب غير مسلح، ونجح فى تحويل حركته الدينية فى موريتانيا وأزواد إلى قوة اجتماعية تتحدى سياسات الضرائب والتجنيد الإجبارى (إبراهيم، ٢٠٠٥: ١٠٢). لذا قامت السلطات الفرنسية بنفى الشيخ سنة ١٩٣٣م بعد أن فشلت محاولات احتوائه بسبب النفوذ الواسع الذى كان يمارسه فى صفوف القبائل والطوائف (دايان، ١٩٨٣: ٨٢). وقد أدت هذه الأنماط من المقاومة الروحية إلى الحفاظ على اللغة العربية والتعليم القرآنى ومنع اندماج المجتمعات فى التعليم الفرنسى الرسمى.

أما المقاومة المسلحة فقد مثّلت الوجه الأكثر صداماً مع الاستعمار الفرنسى. وقد بدأت هذه المقاومة منذ حملات فرنسا على ممالك السنغال الداخلية فى منتصف القرن التاسع عشر. فمملكة والوف وقبائل السنغال الأوسط خاضت معارك عنيفة ضد الحملات الفرنسية بين ١٨٥٠م و١٨٧٠م، مما اضطر فرنسا إلى إعادة النظر فى إستراتيجيتها العسكرية مراراً، لأنّ هذه المعارك المستمرة أوقفت زحف الفرنسيين نحو نهر السنغال لسنوات طويلة (الحديدى، ١٩٩٤: ١٧٨). كما برزت المقاومة المسلحة فى إمبراطورية توكولور التى أسّسها عمر الفوتى، حيث مثلت معاركه ضد القوات الفرنسية فى مناطق السنغال ومالى أحد أهم أشكال التصدى العسكرى المنظم. ويوضح عماد الدين خليل أنّ هذه المعارك لم تكن مجرد

مواجهات متفرقة، بل حملت طابعاً إستراتيجياً واضحاً اعتمد على التحصينات المحلية واستغلال تضاريس المنطقة لمقاومة التفوق العسكرى الفرنسى (خليل، ١٩٩٨: ٢٣٣).

وفى مناطق النيجر ومالى، اتخذت المقاومة المسلحة بُعداً قبلياً قوياً، وخاصة لدى الطوارق الذين خاضوا معارک متواصلة ضد التوسع الفرنسى، التى شكلت واحدة من أكثر المواجهات إرباكاً للقوات الفرنسية، بسبب قدرة الطوارق على تنفيذ حرب طويلة المدى تقوم على الهجمات المتقطعة والتنقل السريع فى الصحراء (الطيب، ٢٠٠٣: ٢٨). هذا النوع من المقاومة جعل فرنسا تعتمد على قوات محلية مثل الكتائب السنغالية لقمع الانتفاضات الشعبية والعسكرية، لأن الجيش الفرنسى لم يكن قادراً وحده على السيطرة على مساحة غرب أفريقيا الشاسعة. وقد ناقش إبراهيم أبو خميس هذه الاستراتيجية بإسهاب فى كتابه عن الاستعمار الفرنسى فى أفريقيا، موضحاً أنها كانت دليلاً على شدة المقاومة المسلحة (أبو خميس، ٢٠٠٧: ٢٦٦).

وقد أدّت تفاعلات المقاومة الروحية والمسلحة إلى إنتاج نموذج متكامل من الرفض الشعبى؛ فالمقاومة الروحية منحت شرعية دينية وثقافية للمقاومة، والمقاومة المسلحة وفّرت ترجمة عملية للرفض الاجتماعى والسياسى. ومع أنّ أساليب المقاومة اختلفت فى طبيعتها، إلا أنّها عبّرت فى مجموعها عن موقف موحد إزاء الاحتلال الفرنسى، قائم على حماية الهوية الدينية والثقافية من جهة، وحماية الأرض والسيادة من جهة أخرى.

خامساً: دور القادة المحليين (السياسيين، القبليين)

مع بداية التوسع الفرنسى فى غرب أفريقيا منتصف القرن التاسع عشر، وجد السكان أنفسهم فى مواجهة مشروع استعمارى لم يقتصر على السيطرة على الأرض فحسب، بل استهدف أيضاً ثقافتهم ودينهم. لذا برز القادة المحليون والزعماء والملوک، الذين استطاعوا الجمع بين الشرعية الدينية والمكانة الاجتماعية. لقد كان لهم دور محورى فى تعبئة الجماهير وتنظيم صفوف المقاومة، مما منح حركتهم قوة وزخماً واسعاً مكّنها من الوقوف فى وجه النفوذ الفرنسى المتصاعد.

أولاً: التنظيم العسكرى

اعتمدت المقاومة ضد الاستعمار الفرنسى على البنية التقليدية للمجتمعات الأفريقية،

حيث شكّلت القبيلة والعشيرة عمودها الفقرى. لم يكن الانتماء القبلى مجرد رابطة اجتماعية، بل كان عهداً جماعياً يفرض على الأفراد حمل السلاح دفاعاً عن الأرض والعرض، بينما استثمر القادة المحليون مكانتهم الدينية والسياسية فى تعبئة المقاتلين واستنهاض هممهم للجهاد (التراوى، ٢٠٠٢: ١٤٥). وقد ساعدت التقاليد العسكرية الموروثة على جعل هذه التعبئة أكثر صلابة، فشعوب مثل الفولانى والماندينغ نشأت على ثقافة المحاربين، حيث كان الشباب يتعلمون منذ طفولتهم فنون الصيد والمبارزة وحمل السلاح. ومن رحم هذه البيئة خرجت مقاومة ساموری توری (١٨٨٢م–١٨٩٨م)، الذى وحّد الماندينغ والفولانى فى جيش كبير قائم على الولاء القبلى والدينى، فصمد فى وجه الفرنسيين لسنوات طويلة مستعيناً بأسلوب الكر والفر (شوقى وعبد الله، ١٩٩٨: ٢١٢).

لم تكن هذه التعبئة حكراً على الرجال؛ فالنساء لعبن أدواراً لا تقل أهمية، من إعداد المؤن والعناية بالجرحى إلى حمل الرسائل بين القرى. وقد برز ذلک مثلاً فى مقاومة الزعيم باكارا جوبا بالنيجر، حيث تكفلت النساء بحماية خطوط الإمداد. كما انخرط العبيد المحررون وأسرى الحروب فى القتال، بحثاً عن الحرية والكرامة، وهو ما بدا جلياً فى مقاومة الطوارق فى صحراء النيجر ومالى (١٩٠٠م–١٩١٧م)، حين التحقت بهم فئات اجتماعية مهمشة وجعلت من المعركة فرصة لتحويل مصائرها (طه، ١٩٨٨: ١٧٥).

أما عسكرياً، فقد اتسمت هذه التعبئة بروح غير نظامية. لم تكن هناک جيوش رسمية بالمعنى الحديث، بل مقاتلون ينتشرون فى مجموعات صغيرة، ينصبون الكمائن، يغيرون ليلاً، ثم ينسحبون إلى الغابات أو الكثبان أو الجبال. وقد استخدم الطوارق معرفتهم بالصحارى والواحات لقطع طرق الإمداد الفرنسية، بينما لجأ الحاج عمر الفوتى (ت. ١٨٦٤م) إلى تضاريس غرب السودان (مالى اليوم) والأنهار لتطويق القوات الفرنسية وإجبارها على القتال فى بيئة معاكسة لتكتيكاتها (عنان، ١٩٩١: ٢٨٩). ولم تقتصر التعبئة على حدود القبيلة الواحدة، بل اتخذت أحياناً طابعاً اتحادياً، حيث وحّدت عدة قبائل صفوفها. وقد تجلى ذلک فى ثورة فوتا تورو (١٩٠٠م)، حين أقسمت القبائل المتحالفة على مواصلة القتال حتى الموت، لتؤكد أن المقاومة لم تعد مجرد فعل عسكرى بل معركة من أجل الهوية والكرامة الجماعية (مصطفى، ١٩٩٠: ٢٠١).

بفضل هذه التعبئة العسكرية والقبلية، استطاعت حركات المقاومة أن تصمد رغم التفوق الفرنسى الواضح فى السلاح والتنظيم. كما خلّدت فى الذاكرة الجماعية أسماء قادة ومحاربين

مثل ساموری توری والحاج عمر الفوتی والطوارق، الذین أصبحوا رموزاً للتضحیة والوفاء، ورسخوا فی تاریخ غرب أفریقیا فکرة أن الدفاع عن الأرض والدین کان جزءاً من قدر هذه الشعوب وهویتها العمیقة (حسن عثمان، ۱۹۸۵: ۱۵۷).

یمکن القول، إن المقاومة لم تکن مجرد معرکة بالسلاح، بل کانت ظاهرة مجتمعیة واسعة تنبض بالحیاة وتجمع فی قلبها الدین والسیاسة والقبیلة والثقافة. کان القادة المحلیون هم الجسر الذی ربط بین الولاء القبلی والإیمان الجماعی، وحوّلوا هذه الروابط إلی قوة فاعلة فی مواجهة التوسع الفرنسی. ومن خلال استدعاء التقالید القتالیة والاستفادة من جغرافیة الأرض، صاغوا ملحمة دفاعیة متجذرة فی الهویة. ولم تقف المقاومة عند حدود الرجال والمحاربین، بل شارکت فیها النساء بأدوار مختلفة، کما انخرط العبید المحرَّرون الذین وجدوا فیها طریقاً للکرامة والحریة. هذا البعد الاجتماعی منحها طابعاً تحریریاً شاملاً، تجاوز مجرد رفض الاحتلال إلی السعی نحو استعادة إنسانیة مهدورة. وعلی الرغم من أن التفوق العسکری الفرنسی فرض الهزیمة علی أرض المعرکة، إلا أن المقاومة خرجت بانتصار آخر، انتصار رمزی ومعنوی، إذترکت فی الذاکرة الجماعیة درساً خالداً: أن الهویة والدین والأرض لیستٍ مجرد ممتلکات مادیة، بل قیم تستحق أن تُدافع عنها الأجیال جیلاً بعد جیل.

ثانیاً: القیادة المباشرة

لم یکن القادة المحلیون فی غرب أفریقیا الفرنسیة مجرد زعماء سیاسیین أو رموز دینیة یکتفون بإصدار الأوامر، بل مارسوا القیادة العسکریة المباشرة وشارکوا بأنفسهم فی خطوط المواجهة الأولی ضد القوات الفرنسیة. وقد منح هذا النهج للمقاومة قوة رمزیة ومعنویة کبیرة، إذ کان وجود القائد فی میدان المعرکة دلیلاً علی صدق القضیة وعدالتها (عنان، ۱۹۹۱: ۲۸۹)، کما أنه رفع من معنویات الجنود، وخلق روح التضامن والالتفاف حول الزعیم.

ومن أبرز الأحداث التاریخیة: أحمدو لوبو (Ahmadou Lobbo) مؤسس دولة ماسینا الفولانیة (فی مالی) (۱۷۹۰–۱۸۴۵م) قاد بنفسه الجیوش ضد الفرنسیین وحلفائهم المحلیین، وکان زعیماً عسکریاً ودینیاً معاً. حضر فی المیدان وجعل مقاومته تمتد فی دلتا النیجر الوسطی، حیث اعتمد علی بناء جیش منظم تحت قیادته المباشرة (مکی، ۱۹۹۸: ۱۳۹). وکذلک لات دیور (Lat-Dior Ngoné Latyr Diop) یُعد أحد أبرز القادة السنغالیین الذین رفضوا التوسع الفرنسی فی السنغال (۱۸۴۲م–۱۸۸۶م)، وقاد المعارک

بنفسه ضد الاحتلال الفرنسى فى معركة ديورمبات (Diourmabé) سنة ١٨٨٦م، حيث استشهد فى ساحة القتال. وقد مثّل رمز الشجاعة لأنه كان دائماً فى مقدمة جنوده، رافضاً كل عروض التحالف مع فرنسا.

يمكن الاستدلال مما مرّ، أنّ القيادة العسكرية المباشرة التى مارسها القادة المحليون فى غرب أفريقيا الفرنسية أعطت للمقاومة ضد الاستعمار الفرنسى قوة خاصة، لأنها شكلت بين الرمزية والمعنوية من جهة، والتنظيم العسكرى الفعلى من جهة أخرى. لقد كان وجود القادة مثل أحمدو لوبو ولات ديور وغيرهما فى ساحات القتال عاملاً حاسماً فى رفع الروح المعنوية وتعزيز التضامن الشعبى، كما رسّخ شرعية المقاومة باعتبارها دفاعاً عن الدين والأرض والكرامة. غير أن هذا النموذج حمل جانباً مزدوجاً؛ فبينما منح المقاومة قوة معنوية ورمزية، جعلها أيضاً عرضة للضعف عند فقدان القائد فى المعركة، مما كشف عن محدودية استمراريتها عند غياب الزعامات الكاريزمية.

ثالثاً: الاستمرارية عبر الأجيال

اتسمت المقاومة ضد الاستعمار الفرنسى فى غرب أفريقيا بقدرتها على الاستمرار وعدم الاقتران بشخص واحد فقط، بل كانت تنتقل من جيل إلى آخر، سواء عبر الأبناء أو الأقارب أو حتى الزعامات القبلية المجاورة. فقد فهم الفرنسيون أن القضاء على قائد بعينه لا يؤدى إلى نهاية النهضة، إذ سرعان ما يظهر خلفاء يواصلون النهج ذاته. ويتجلى هذا بوضوح فى السنغال، حيث لم تنته حركة با سامبا بعد اعتقاله، بل تحولت إلى مقاومة لامركزية يقودها أتباعه وأبناؤه الذين واصلوا شنّ الهجمات المفاجئة على الحاميات الفرنسية فى الأرياف (أحمد عبد الرحيم، ١٩٩٠: ٢٠١).

وعلى المنوال نفسه، فإن مقاومة ساموری توری لم تتوقف عند أسره سنة ١٨٩٨م ونفيه إلى الغابون، إذ تولى أولاده وأسباطه إعادة تنظيم صفوف الماندينغ وشن غارات مختلفة على الإدارة الفرنسية، بل إن هذا النهج الجهادى امتد حتى منتصف القرن العشرين، حيث برز حفيده أحمد سيكو توری زعيماً وطنياً قاد غينيا إلى الاستقلال عام ١٩٥٨م (التراوى، ٢٠٠٢: ١٧٨). كما أن تجربة الحاج عمر تال تقدم دليلاً آخر على الاستمرارية، إذ ناب مكانه أحمدو سيكو تال بعد وفاته سنة ١٨٦٤م، فقاد بنفسه المعارک ضد الفرنسيين محافظاً على شرعية والده الدينية والعسكرية، وامتدّ هذا النضال حتى أسره عام ١٨٩١م (حمدان،

۱۹۷۳: ۲۱۹). وفی موریتانیا والصحراء الکبری، ورث أبنـاء الشـیخ مـاء العینـین (۱۸۳۰–۱۹۱۰م) زعامة المقاومة بعد رحیله، وکان أبرزهم الشیخ أحمد الهیبة الذی قاد معرکة سیدی بوعثمان سنة ۱۹۱۲م فی موریتانیا، مؤکداً أن المواجهة مع الفرنسیین لم تکن حدثاً فردیاً بل إرثاً عائلیاً ممتداً (ولد السعد، ۱۹۹۴: ۱۱۹–۱۲۱). وحتی فی السنغال، فإن استشهاد الـزعیم لات دیور فی معرکة دیور مبات سنة ۱۸۸۶م لم یُمح مساره، إذ استمر أنصاره وأبنـاؤه فـی تنظیم هجمات متفرقة ضد الاحتلال الفرنسی فی مناطق قبائل الولوف وکایور (مکی، ۱۹۹۸: ۱۴۴).

وهکذا، فإن الاستمراریة عبر الأجیال تؤکد أن المقاومة ضد الاستعمار الفرنسی فی غرب أفریقیا لم تکن مجرد رد فعل مؤقت، بل کانت ظاهرة متجذرة فی البنی الاجتماعیة والدینیـة والسیاسیة. هذا الامتداد الزمنی والجیلـی جعل المقاومة تتغیر من جهاد محلی ضـد التغلغـل العسکری إلی حرکة وطنیة قادت فی النهایـة إلـی التحـرر والاسـتقلال. وبـذلک، یظهـر أن الاستمراریة عبر الأجیال جعلت المقاومة ضد الاستعمار الفرنسی فی غـرب أفریقیـا ظـاهرة متجذرة تتجاوز حدود القادة الأفراد، حیث تحولت من حرکات جهادیة محلیـة إلـی حرکـة وطنیة واسعة، انتهت بانتزاع الاستقلال السیاسی فی منتصف القرن العشرین.

رابعاً: التکامل مع القادة الدینیین

شکّل التکامـل بـین القـادة المحلیـین (الزعمـاء التقلیـدیین، الملـوک، شـیوخ القبائـل) والشخصیات الدینیة الإسلامیة (الأئمة، الفقهاء، شیوخ الزوایا) أحـد أهـم عوامـل القـوة فـی المقاومة ضد الاستعمار الفرنسی فی غرب أفریقیا. فقد تضافرت الزعامة السیاسیة بالشـرعیة الدینیة لتعبئة المجتمعات فی مواجهة القوة الاستعماریة، بحیـث کـان الـزعیم المحلـی یـوفّر الحمایة والقیادة العسکریة، بینما یمنح الشیخ الدینی شـرعیة روحیـة تُحـوّل المقاومـة إلـی واجب دینی مقدس.

یتضح هذا التکامل بجلاء فی موریتانیا خلال مقاومـة قبائـل التـرارزة والبراکنـة (بنـان، ۲۰۰۵: ۹۲)، حیث تعاون بعض شیوخ المحاظر مع الزعامـات القبلیـة فـی تنظـیم حمـلات مسلحة ضد التوسع الفرنسی، فکان القائد المحلی یوفر الرجال والسلاح، بینمـا یمـده الشـیخ الدینی بالفتوی والدعم الروحی الذی یحوّل المعرکة إلی جهاد مشروع (ولـد السـعد، ۲۰۰۴:

١١٥). أما فى النيجر، فقد برز ذلک خلال انتفاضة قبائل الطوارق سنة ١٩١٦م–١٩١٧م، إذ قدّم الفقهاء وشيوخ الزوايا فى أغاديز الإطار الشرعى لمقاومة الفرنسيين، بينما تولى زعماء الطوارق إدارة المعارک الميدانية، فنتج عن ذلک تحالف واسع هدد سيطرة الاستعمار فى الصحراء الكبرى (Djibo, ١٩٩٠: ٢٠١).

وفى مالى، كان للتكامل دور مهم فى منطقة سيغو وكاى، حيث تحالفت الزعامات التقليدية مع الفقهاء المحليين (Ivor Wilks, ١٩٨٣: ٩٣)، فعمل هؤلاء على حشد المقاتلين عبر خطاب دينى يربط بين الدفاع عن الأرض وصون العقيدة، بينما وفّر القادة المحليون البنية التنظيمية للمواجهة (Traoré, ١٩٨٣: ١٥٧). أما فى ساحل العاج، فقد أظهر سكان مناطق الشمال مثالاً على هذا التكامل، حيث لعب الأئمة دوراً رئيسياً فى تعبئة الناس، بينما تعاون شيوخ القبائل فى توفير الملجأ والموارد اللوجستية للمقاتلين، الأمر الذى ساعد على إطالة أمد المقاومة قبل أن تُخضعها فرنسا بالقوة (Triaud, ١٩٨٧: ٥٩).

يمكن القول بأن نجاح المقاومة فى غرب أفريقيا لم يكن نتيجة القوة العسكرية وحدها، بل ثمرة التكامل بين القيادة السياسية والدينية. فقد وفر القادة المحليون البنية التنظيمية والحماية، بينما أضفى العلماء الشرعية الروحية على الجهاد ضد الاستعمار، مما جعل المقاومة أكثر شمولاً واستمرارية. هذا النموذج من التعاون منح الحركات المناهضة للاستعمار قدرة أكبر على الصمود والتأثير، وأكد أن الشرعية السياسية وحدها أو الدينية وحدها لم تكن كافية، وإنما التحالف بينهما هو ما صنع قوة المقاومة وأطال عمرها.

النتايج

تبيّن من خلال هذه الدراسة أنّ الإسلام فى غرب أفريقيا لم يكن مجرد دين وافد، بل تحوّل إلى منظومة حضارية متجذّرة أسهمت فى بناء الهوية الدينية والثقافية للمجتمعات المحلية، وشكّلت أساساً قوياً للمقاومة ضد الاستعمار الفرنسى. فقد أدّى انتشار الإسلام عبر التجارة والدعوة والطرق الصوفية إلى ترسيخ بنى تعليمية واجتماعية متماسكة مكّنت المجتمعات من مواجهة السياسات الاستعمارية.

وأظهرت الدراسة أنّ الطرق الصوفية، خاصة القادرية والتيجانية، لعبت دوراً محورياً فى تنظيم المقاومة، سواء فى صورتها الروحية والثقافية أو فى أشكالها المسلحة، من خلال تعبئة الجماهير ومنح الشرعية الدينية للمواجهة. كما أسهم التكامل بين القادة الدينيين والزعماء

المحليين فی ضمان استمرارية المقاومة وتحويلها من ردّ فعلٍ محدود إلى مشـروع تحـررى واسع، مهّد لظهور الحركات الوطنية والاستقلال السياسی فی منتصف القرن العشرين.

المصادر:

١. إبراهيم أبو خميس، الاستعمار الفرنسى فى أفريقيا، دار المعرفة، بيروت: لبنـان، الطبعة الأولى، ٢٠٠٧م.
٢. حسن عثمان، الحركات التحررية فى غرب أفريقيا، دار الفكر العربى، القـاهرة، ١٩٨٥م.
٣. حسن على عطية، الإسلام فى أفريقيا، دار النهضة العربية، القاهرة: مصر، الطبعـة الثانية، ١٩٨١م.
٤. حمدان جمال، استراتيجية الاستعمار والتحرر فى أفريقيا، عالم الكتب، القـاهرة: مصر، الطبعة الأولى، ١٩٧٣م.
٥. حميد دولاب ضيدان، الجذور التاريخية للصلات العربية الأفريقيـة، منشـورات مركز البحوث والدراسات الأفريقية، سبها: ليبيا، الطبعة الأولى، ١٩٩٣م.
٦. ديفيد روبنسون، طرق التكيّف: المجتمعات الإسلامية والسلطات الفرنسـية فـى السنغال وموريتانيا ١٨٨٠—١٩٢٠، جامعة أوهايو، الطبعة الثانية، ٢٠٠٠م.
٧. ربيع رشيدى، دور اللغة العربية فى العلاقات بين المغرب ودول أفريقيا جنـوب الصحراء، جامعة محمد الخامس، الرباط: المغرب، بدون تاريخ.
٨. شيخ أنتا ديوب، أفريقيا السوداء ما قبل الاستعمار، الوجود الأفريقـى، بـاريس: فرنسا، الطبعة الأولى، ١٩٦٠.
٩. طه إبراهيم على، أفريقيا فى العصر الحديث، دار النهضة العربية، بيروت: لبنـان، الطبعة الثانية، ١٩٨٨م.
١٠. عبد الرحمن الزاوى، جهاد الحاج عمر الفـوتى وأثـره فـى غـرب أفريقيـا، دار المدار الإسلامى، طرابلس: ليبيا، ٢٠٠١م.
١١. عبد الرحمن السعيد، الإسلام فى أفريقيا بين الأمس واليوم، دار الفكـر العربـى، القاهرة: مصر، الطبعة الأولى، ١٩٧٣.
١٢. أحمد عبد الرحيم مصطفى، أفريقيا فى عصر الاستعمار الأوروبـى، دار المعرفـة الجامعية، القاهرة، ١٩٩٠م.
١٣. عبد العزيز عبد الله، تاريخ المسلمين فى أفريقيـا، دار الفكـر العربـى، القـاهرة:

مصر، الطبعة الأولی، ۱۹۸۱م.
۱۴. عبد الله إبراهیم النعیم، الإسلام فی غرب أفریقیا: تاریخه وحاضره، جامعة أفریقیا العالمیة، الخرطوم: السودان، ۲۰۰۷.
۱۵. عبد الله إبراهیم، فی الإعلام والتحرر فی غرب أفریقیا، دار الفکر العربی، القاهرة: مصر، الطبعة الأولی، ۲۰۰۵م.
۱۶. عبد الله سالم محمد بازینة، انتشار الإسلام فی أفریقیا جنوب الصحراء، منشورات ۷ أکتوبر، مصراتة، الطبعة الأولی، ۲۰۱۰م.
۱۷. عبد الله محمد الطیب، مقاومة الطوارق للتوسع الفرنسی فی الصحراء الکبری، دار الفکر العربی، القاهرة: مصر، الطبعة الأولی، ۲۰۰۳م.
۱۸. عطی الله شوقی وعبد الله عبد الرازق إبراهیم، دراسات فی تاریخ غرب أفریقیا الحدیث والمعاصر، مکتبة الإسکندریة، القاهرة: مصر، ۱۹۹۸م.
۱۹. علی باری محمد فاضل وکریدیة سعید إبراهیم، المسلمون فی غرب أفریقیا: تاریخ وحضارة، الطبعة الأولی، دار الکتب العلمیة، بیروت: لبنان، ۲۰۰۷م.
۲۰. علی بدوی علی سالمان، الطریقة القادریة والاستعمار الفرنسی فی موریتانیا ۱۹۰۳–۱۹۶۰م، رسالة ماجستیر فی تاریخ حدیث ومعاصر، دراسات أفریقیة، جامعة القاهرة: مصر، ۲۰۰۳م.
۲۱. عماد الدین خلیل، الحرکات الإسلامیة فی أفریقیا، دار ابن کثیر، بیروت: دمشق، الطبعة الأولی، ۱۹۹۸م.
۲۲. العواضی، أحمد محمد، الطرق الصوفیة فی غرب أفریقیا وأثرها فی الحیاة الدینیة والسیاسیة، مکتبة الآداب، القاهرة: مصر، الطبعة الأولی، ۲۰۱۱م.
۲۳. بنان أحمد، المقاومة الوطنیة فی موریتانیا: جذور وأبعاد، دار المعرفة، نواکشوط (موریتانیا)، الطبعة الأولی، ۲۰۰۵م.
۲۴. محمد المختار ولد السعد، الطرق الصوفیة فی غرب أفریقیا وأثرها فی نشر الإسلام، دار المعارف، نواکشوط: موریتانیا، ۲۰۰۴م.
۲۵. محمد عبد القادر الحدیدی، تاریخ غرب أفریقیا الحدیث والمعاصر، مکتبة الأنجلو المصریة، القاهرة: مصر، الطبعة الأولی، ۱۹۹۴م.
۲۶. محمد عبد الله عنان، تاریخ الشعوب الإسلامیة وأقطارها، مکتبة الأنجلو

المصرية، القاهرة: مصر، الطبعة الأولى، ١٩٩١م.
٢٧. محمد على الهمشرى، السيد أبو الفتوح، انتشار الإسلام فى أفريقيا، الطبعة الأولى، دار أركان، الرياض، ١٩٩٧م.
٢٨. مكى محمود على، أفريقيا الغربية بين الماضى والحاضر، مكتبة الأنجلو المصرية، القاهرة، الطبعة الثانية، ١٩٩٨م.
٢٩. نجوى سرى سعاد، الشيخ عبد القادر الجيلانى وأثره فى التربية الروحية على المسلمين فى تايلاند (بانكوك)، بحث تكميلى مقدم لنيل درجة الماجستير فى معارف الوحى والتراث، قسم أصول الدين ومقارنة الأديان، كلية معارف الوحى والعلوم الإنسانية، الجامعة الإسلامية العالمية – ماليزيا، ديسمبر ٢٠٠٦م.
٣٠. نجينج دايان، أفريقيا ترفض، دار الفارابى، بيروت: لبنان، الطبعة الأولى، ١٩٨٣م.
٣١. هارون الهادى، "التأثير السياسى للطريقة القادرية فى إفريقيا جنوب الصحراء خلال العصر الحديث"، جامعة غرداية، مجلة روافد للبحوث والدراسات، العدد الثانى، ٢٠١٧م.
٣٢. ولد السعد محمد المختار، الاستعمار والمقاومة فى موريتانيا، المعهد الموريتانى للبحث العلمى، نواكشوط: موريتانيا، الطبعة الثانية، ١٩٩٤م.
٣٣. بوها محمد عبد الله سيدى، الهوية الثقافية والدينية لبلاد شنقيط (موريتانيا)، معهد الدراسات والبحوث الإسلامية، بدون تاريخ.
٣٤. التراوى مصطفى، الاستعمار الفرنسى فى غرب أفريقيا، دار الفكر العربى، القاهرة: مصر، ٢٠٠٢م.
٣٥. توماس أرنولد، الدعوة إلى الإسلام: بحث فى نشر العقيدة الإسلامية، المترجم: د. حسن إبراهيم حسن، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: مصر، الطبعة الأولى، ١٩٥٧م.
٣٦. جلال يحى، تاريخ أفريقيا الحديث والمعاصر، المكتب الجامعى الحديث، الإسكندرية، ١٩٩٩م.
٣٧. جوزيف شاخت، كليفورد بوزورت، تراث الإسلام، ج١، المترجم: محمد رهير السمهورى، حسين مؤنس، تعليق وتحقيق شاكر مصطفى، الكويت، بدون تاريخ.

۳۸. حسن إبراهيم حسن، انتشار الإسلام في القارة الأفريقية، مكتبة النهضة المصرية، القاهرة: مصر، الطبعة الثالثة، ۱۹۸۴م.

۳۹. Djibo, Mamadou, L’Islam et la société nigérienne: du XIXe au XXe siècle, Éditions Karthala, Paris, Première édition, ۱۹۹۰.

۴۰. Harrison, Christian, La France and Islam in West Africa ۱۸٦۰-۱۹٦۰, Palgrave Macmillan, London, ۲۰۱۸.

۴۱. .۴۱Wilks, Ivor, Wa and the Wala: Islam and Polity in Northwestern Ghana, Cambridge University Press, Cambridge – United Kingdom, First Edition, ۱۹۸۳.

۴۲. .۴۲Trimingham, J. Spencer, The Sufi Orders in Islam, Oxford University Press, Oxford: New York, Second Edition, ۱۹۹۸.

۴۳. .۴۳Robinson, David, French West Africa, Cambridge University Press, Cambridge, United Kingdom, ۲۰۰۰.

۴۴. .۴۴Robinson, David, Muslim Societies in African History, Cambridge University Press, Cambridge, United Kingdom, ۲۰۰۰.

۴۵. .۴۵Robinson, David, Paths of Accommodation: Muslim Societies and the Colonial State in Africa, Heinemann, Nairobi, Kenya, ۲۰۰٤.

۴۶. .۴۶Traoré, Bakary, La résistance à la pénétration et à l’occupation coloniale française au Mali, Éditions de l’Université du Mali, Bamako, Première Edition, ۱۹۸۳.

۴۷. .۴۷Triaud, Jean Louis, "La légitimation religieuse de la résistance: Islam et contestation de la conquête

coloniale en Afrique de l’Ouest", l’École des Hautes Études en Sciences Sociales, Paris, France, ١٩٨٧.